توضيحات رعائية حول سرّ المسحة المقدّس

بقلم المتروبوليت سابا (اسبر)

سرّ مسحة الزيت أو سرّ مسحة المرضى هو سرّ ليتورجي يُتَّمَم بخدمة صلاة خاصّة على الزيت من أجل دهن المريض "لصحّة النفس والجسد"، كما يرد في الخدمة ذاتها. يمكن أن يُقام هذا السرّ في البيوت أو الكنائس. للأسف، نُسي هذا الأمر في أماكن عديدة، وكأنه سقط من الاستعمال!

تقيم الكنيسة المقدّسة هذا السرّ في أيام تسبق الأعياد الكبرى كالميلاد والظهور والفصح وغيرها، استعداداً لاستقبال العيد، وتهيئة للمؤمنين الذين سيتقدّمون من المناولة المقدّسة.

لماذا يقام هذا السرّ جماعياً في الكنيسة قبل الأعياد؟

استعداداً لاستقبال العيد روحياً، وتهيئة المؤمنين من أجل التقدّم إلى الاشتراك في سرّ الإفخارستيا. فالمناولة المقدّسة تحتاج إلى استعداد وتحضير وتوبة.

ثمّة سبب ساهم في إقامة هذا السرّ قبل الأعياد أيضاً، ألا وهو العادة القديمة التي تقتضي عدم التقدّم من المناولة المقدّسة إلّا عدّة مرّات في السنة فقط. ولأنّ هذه المرّات غالباً ما تكون مترافقة مع الأعياد الكبرى، فقد اعتادت الكنيسة المقدّسة أن تقيم هذا السرّ لجميع المؤمنين في الكنيسة، تحضيراً لهم وتبريكاً.

متى بدأت هذه الخدمة؟

تذكر رسالة القدّيس يعقوب في العهد الجديد هذا التوجيه:

"أمريض أحد بينكم؟ فليدعُ شيوخ الكنيسة فيصلّوا عليه ويدهنوه بالزيت باسم الربّ" (يع٥/١٤).

كما ورد ذكر صلاة لتبريك الزيت في كتاب "الأوامر الرسولية" الذي يعود إلى القرن الثالث:

"أيّها الرَّبُّ إلٰهُنا، أنتَ قَدِّسْ هٰذا الزَّيتَ، وَاغرِسْ فيهِ موهبةَ التّقديسِ لِلَّذِينَ يُوَزِّعُونَهُ والَّذِينَ يَقبَلُونَهُ. بِهِ أَشَرْتَ أنْ يُمسَحَ المُلُوكُ وَالكهنةُ والأنبياءُ في القديم. هَبْنا نحنُ أيضًا إذْ نُمسَحُ بهِ، صِحَّةَ النَّفسِ والجَسَد."

لماذا نقيم الخدمة مساء الأربعاء العظيم؟

دخلت هذه الخدمة، في الممارستين الأنطاكية واليونانية، يوم الأربعاء العظيم في القرن الخامس عشر والسابع عشر.

إذا ما قرأنا نصّ الخدمة نجد أنّه يذكر الشفاء الجسدي والنفسي، وتالياً يركّز على التوبة إذ تتكرّر هذه اللفظة مرّات كثيرة. خدمة مسحة المرضى خدمة توبة بامتياز.

لذلك تنتهي برفع الإنجيل فوق رؤوس الحاضرين بينما هم ساجدين، ويقرأ الكاهن عليهم إفشين الحلّ من الخطايا الذي يقرأه عادة على التائب بعد إتمامه سرّ الاعتراف.

يقيم تقليد كنيستنا الأنطاكية هذا السرّ سنوياً في يوم الأربعاء من الأسبوع العظيم، لأنّ التقليد الأنطاكي يعرف اشتراك الكثير من المؤمنين بكأس الإفخارستيا صباح الخميس العظيم، الذي نقيم فيه تذكار تأسيس العشاء السرّي.

بعض الرعايا تقيم القدّاس الإلهي في ذلك اليوم باكراً جدّاً وقبل طلوع الضوء حتّى يتسنى للموظفين والطلّاب المشاركة في هذا القدّاس. هذه ممارسة أشجّع عليها وأتركها لتدبير الكهنة في الأبرشية. ففي إقامته باكراً بركة عظيمة وفرصة لجميع المؤمنين الراغبين في الاشتراك فيه وتالياً التقدّم من الكأس المقدّسة.

عندما بدأت في رعيتي، كاهناً، ببركة الميتروبوليت، بالبدء بصلاة السَحَر والقدّاس في الساعة الرابعة فجراً، يوم الخميس العظيم، اعترض كثيرون، لكن عندما دخلت الكنيسة في الساعة الثالثة والنصف لأهيئ الذبيحة قبل البدء بالخدمة فوجئت بأنّها كانت ممتلئة جلوساً، والبعض كان واقفاً لأنّه لم يتبقّ مقاعد فارغة!!

هل يحقّ للمؤمنين أن يأخذوا من الزيت المبارك في هذه الخدمة ويدهنون به أنفسهم؟

هنا من الضروري أن نعي أنّ التمييز بين الإكليروس والعلمانيين قد ازداد من بعد القرن الثالث عشر، وساد من بعد سقوط القسطنطينية، تحسّباً من وقوع الأشياء المقدّسة في أيدي غير المسيحيين. تضخّم هذا التمييز مع الزمن إلى حدّ أنه غيّب الكهنوت الملوكي الذي يتمتّع به كلّ إنسان معمّد.

لنذكر أنّ الكنيسة تعالج الممارسات الخاطئة أحياناً بتشديد معاكسٍ للممارسة الخاطئة. قد يكون التشديد أحياناً وكأنه معاكس للتقليد الأصيل وغير متوافق معه، وذلك بغية تقويم الممارسة الخطأ، والقضاء على عادة ما، تجذّرت مع الزمن، لكنّها لا تتوافق مع الإيمان ولا تليق به.

فأمام ممارسة اعتادت أن تصفّ عشرات من المستوعبات الصغيرة الملأى بالزيت من أجل أن يأخذها المؤمنون إلى بيوتهم، قد يتعامل بعضاً من غير الأتقياء أو الجهّال، مع الزيت المقدّس بطريقة غير لائقة. لذلك تصدر تعليمات تربوية في بعض الأوقات لتقول بمنع توزيع مستوعبات الزيت المقدّس على المؤمنين، بهدف التشديد على أن يعي جميع المؤمنين قيمة هذا السرّ المقدّس. يتمّ هذا التوجيه بهدف ضبط الفوضى والتساهل وغياب التقوى.

لكن هذا التوجيه التربوي يصير في أذهان الكثيرين تقليداً "مقدّساً"، إذا استمر لسنوات طويلة. وتالياً، يُحرَم المؤمنون من التبرّك بالزيت المقدّس في أوقات الحاجة كالمرض أو الشدائد المختلفة.

إذ إنّه من الصعب جداً في زمننا الحالي أن يُدعى الكاهن لإقامة السرّ (يحتاج إلى ساعة ونصف على الأقل) في البيوت كلمّا مرض أحدهم أو دخل إلى المستشفى. بالإضافة إلى أنّ عدد الكهنة لا يسمح بتوفير إتمام هذه الخدمة دائماً.

والتقليد الأرثوذكسي المعاش يعرف تبرّك المؤمنين بالزيت المبارك الذي يجلبونه من الكنائس أو الأديرة، ويدهنون به تبركاً في أوقات المرض أو التجارب أو الحاجة.

ما الذي يجب فعله اليوم؟

السؤال الآن: هل نمنع عن المؤمنين الاحتفاظ بالزيت المقدّس في بيوتهم، أم نعطيه لمن يطلبونه؟ وكيف نحفظه؟

بدءاً يجب أن نميّز بين الدهن بالزيت المقدّس وبين إقامة السرّ الذي لا تجوز إلّا للكاهن. فاحتفاظنا بالزيت المقدّس واستعماله لا يعني أننا أتممنا السرّ، بل حصلنا على بركة بالدهن به.

لذلك أنصح الكهنة بالسماح بتوزيعه على المؤمنين بعد عظة قصيرة يرشدون المؤمنين فيها إلى كيفية استعمال الزيت وحفظه بتقوى وورع في البيت. يعرف التقليد الأرثوذكسي استعماله في حالات المرض والوجع بخاصّة. كذلك في أوقات التجارب والحزن والضيق، إلخ. يتمّم المؤمن صلاةً أوّلاً، ومن ثمّ يدهن جبينه أو مكان الوجع بالزيت المقدّس راسماً به إشارة الصليب.

كيف ينبغي حفظه؟

أما حفظه فيكون، في الركن الخاصّ بالله، أو ما يسمّى زاوية الصلاة، في البيت الأرثوذكسي، حيث توضع أيقونات السيّد والسيّدة وشفعاء أعضاء العائلة من القدّيسين مع القنديل. (أرجو أن يكون هذا الركن موجوداً في كلّ بيت.)

أعاد الله هذه المناسبات عليكم بالبركات الدائمة.